# المرأة والجسد في الثقافة الشعبيّـة

**نصيرة شافع بلعيد**
جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان

**الملخّص**

ارتبطت قيمة المرأة بالجسد في الثقافة الشعبية، إذ أنّ المرأة تصل إلى درجة الاحترام والتقديس كأمّ وكجدّة بسبب الإنجاب، أمّـا إذا كانت عاقرا لا تنجب فتسقط عنها صفة الأنوثة لأنّ جسدها ليس خصبا، كما تصبح عالة على المجتمع، إلاّ أنّ انتشار التعليم وتطوّر المجتمع جعل الثقافة الشعبية المعاصرة تغيّر نظرتها إلى المرأة شيئا فشيئا.

## ■ Résumé ■

la valeur de la femme s'est associé avec le corps dans la culture populaire, puisque la femme arrive au degré de respect et de sanctification en tant que mère et grand-mère à cause de procréer, mais si elle est stérile et ne peut pas avoir des enfants elle perd le sens de la féminité parce que son corps n'est pas fertile, devenu aussi un fardeau pour la société, mais la propagation de l'éducation et le développement de la société poussent la culture populaire contemporaine pour changer son point de vue des femmes petit a petit.

## ■ Abstract ■

The value of woman is associated with the body in popular culture, since the woman up to the degree of respect and sanctification as a mother and grandmother because of childbearing, but if she is barren and can not have children she loose the sense of femininity because her body is not fertile, also become a burden on society, but the spread of education and the development of society making contemporary popular culture to change its view of women slowly.

## • تمهيد

المرأة هي الأمّ والابنة والأخت والجدّة والخالة والعمّة، إنّها نصف المجتمع وهي التي تنجب نصفه الثاني، فهي إذن المجتمع كلّه ومع ذلك فقد اختزلت الثقافة الشعبية المرأة في جسدها، فأنوثتها هي قدرها ومحدّدة لمصيرها، وحتى القوى العقلية للمرأة مكيّفة بأخلاق الأنوثة.

لقد ميّزت الثقافة الشعبية بين لفظين : امرأة وأنثى، فالمرأة اسم مجرد يقابله اسم رجل، اسم يختزل كلّ النساء في الأزمنة الغابر منها والظاهر، يغيب فيها الاستثناء، بينما الأنثى والأنثوي (Féminité) صفات وحالات، إذا تمثلها الجسد الأنثوي فهو مؤنث، وإلاّ فهو خارج الأنوثة.

جاء في "لسان العرب" : «التأنيث خلاف التذكير وهي الإناثة، ويقال هذه امرأة أنثى إذا مدحت بأنّها كاملة من النساء».[1]

و"الصفات الأنثوية بالمعاجم الفرنسية على اختلاف تصنيفاتها، تذهب عزفا على سيمفونية الجسد الشهي، البهي في مقابل الجسد الولاّد"[2]، وفي المعطى الثقافي العربي يزيد عليه مراهنة على المرأة الأنثى في سنّ معيّن تبعا لمقاييس وأجهزة بتعطلها تغادر المرأة برج الأنوثة.

يعرّف "عباس حسن" في كتابه "النحو الواضح" التأنيث بقوله : «المؤنث الحقيقي : هو الذي يلد ويتناسل ولو كان تناسله عن طريق البيض والتفريخ».

هذا ما تقوله اللغة ويقوله الاصطلاح حول « التأنيث الحقيقي من حيث ربطه دلاليا بالولادة والتناسل، والجسد الذي لا يلد ولا ينسل يخرج عن دلالة التأنيث وهذا ما يقوله الاصطلاح الثقافي حينما يدخل المرأة في سنّ اليأس، سنّ اللاأنوثة».[3]

وفي هذا السنّ لا تكون المرأة رجلا فتتحلّى بصفات الذكورة، كما أنّها لم تعد مؤنثة منذ فقدت شروط المؤنث الحقيقي.

وهذا المسمى بسنّ اليأس هو السنّ الذي وصفه "ابن عبد ربّه" بقوله : «آخر عمر المرأة شرّ من أوّله، يذهب جمالها ويذرب لسانها وتعقم رحمها ويسوء خلقها».

فالمرأة حين يعقم رحمها، تسقط عنها صفة التأنيث لأنّ هذا الجسد لم يعد جسدا ولودا، ويدخل الجسد في مرحلة اللاهوية، فهو ليس مذكرا فيقبل منه سوء الخلق وعدم الجمال وسلاطة اللسان، «وهذه صفات مقبولة في الرجال وربما تكون محمودة فيهم ومتوقعة منهم ولكنّها غير مقبولة في النساء، فسلاطة لسان المرأة مرفوضة بينما سلاطة لسان الرجل فحولة مطلوبة، والشاعر الفحل هو من بلغ القمّة في لسانه وفي لغته».[4]

هنا يصبح الجسد النسوي عالة اجتماعية، وامرأة تصل هذه المرحلة تكون بمثابة الزيادة الجسدية، فهي يائس وهي حمقاء، وهناك رغبة ثقافية معلنة في التخلّص منها وفي تصويرها بوصفها عنصرا زائدا غير مرغوب فيه.

وهذا تصوّر ذهني يقف وراء تخوّف النساء من الإعلان عن أعمارهنّ لأنّ الإعلان عن العمر يكشف عن موعد خروج المرأة من التأنيث ودخولها إلى مرحلة اليأس والحمق والحموية، مرحلة اللاهوية واللاصفة واللاوظيفة.

وكلّ موروثات الثقافة تحيل وتشير إلى هذا المصير المتربص بالمرأة دون الرجل، فمصير الرجل إلى حكمة وحنكة ونضج عقلي يعوّض النقص العضلي، أما النقص الجسدي في المرأة فليس له من تعويض لأنّ الثقافة تنفي العقل عن المرأة والمثل يقول : «لبّ المرأة إلى حمق»، فالحماقة مصير يتربّص بالمرأة وينتظرها في محطّة محدّدة من محطّات عمرها».[5]

على أنّ الإشارة إلى لبّ المرأة في هذا المثل تقوم على سخرية واضحة، فالثقافة تنفي العقل عن المرأة أصلا وتحصرها في الجسدية الحسيّة وتجعل عقلها في رحمها .

التأنيث -إذن- صفة للجسد تعرض له وتلابسه، ثمّ تزول عنه وتغادره، فإذا قيل عن المرأة أنها أنثى، فهذا يعني أنّها تتصف بصفات الأنوثة المعتبرة ثقافيا، ولا تطلق هذه الصفة على أيّ امرأة، ولا يقال هذه أنثى إلاّ للكاملة من النساء.

والمرأة الفاقدة لمواصفات الأنوثة الجسدية تصبح كائنا ناقصا، ومشكلة هذا النقص أنّه غير قابل للتكميل، لذلك تعلّق المرأة في الفضاء الثقافي الذي يمارس عمليات التنميط المنحاز بوضوح ضدّ المرأة ولمصلحة الرجل دائما.

إنّ جسدا غير مؤنث وغير مذكر لهو جسد غريب على الثقافة وهو كائن ناقص لا تصدق عليه صفات التأنيث، ولا يرقى إلى صفات الذكورة، لذلك يجري تحميق المرأة إذا كبرت وتعدّت مرحلة الحمل والإنجاب، ويجري حجرها داخل حدود اليأس، فينتهي الجسد المؤنث إلى أن يصبح جسدا غير فعّال وغير وظيفي.

من هذا المنطلق فإنّ قيمة المرأة في المثل الشعبي ليست لذاتها وإنما بمن أنجبت فـ «قيمة أمّ زيد أنّها خلفت زيد» كما يقول المشارقة.

« لقد شكّل جسد المرأة - عامّة - بخصوصيته البيولوجية وإمكانياته الطبيعية عبر تاريخ الحضارات الإنسانية والميثولوجيا القديمة مجالا للقوّة الميتافيزيقية للسلطة المرتبطة بسرّ الأمومة والخصوبة وحمل الحياة الجديدة.

هذا الجسد المقدّس هو رمز الطهارة والخير والزهد وعلاقة العطاء والخصوبة، هذه الفكرة تمتدّ قديما في حضارتنا وثقافتنا وعقليتنا،

وتستمرّ بمرجعية واقعية تمارس في سلوكنا وعلاقة الآخر بجسدنا».[6]

والمرأة هذا الجسد الخصوبة رمز الخير والعطاء تصوير يزيل عن المرأة مفاهيم التحقير والإهانة ويحيطها بالتقديس والاحترام، لما يحيط بجسدها من أسرار ووظائف يعجز الرجل عن آدائها.

«فمع اكتشاف الزراعة تحوّلت اهتمامات الإنسان الأوّل إلى تجسيد هذا الاكتشاف في أساطيره، وقد تجلّى ذلك من خلال تجسيد خصوبة الأرض المنتجة للمحاصيل في صورة المرأة، هذا التجسيم جاء على الخلفية الدينية الأولى والتي كانت تتصوّر القوّة الإلهية في شكل ماهية أنثوية هي الأمّ الكبرى للكون، غير أنّ الإنسان بنى حول هذا الشكل الإلهي القديم بنية جديدة من التصورات والاعتقادات والأساطير ذات مضامين تتصل بالزراعة التي غدت جوهر حياته وأساس تنظيمه الاجتماعي والسياسي».[7]

ولعلّ هذه الأهمية للمرأة وقدرتها على أن تكون محورا أوليا تأسّست عليه الأساطير نابع من المكانة الاجتماعية التي كانت تحتلها في أولى العصور الإنسانية، وصورتها المرسومة في ضمير الجماعة الأول، «فامتياز جسدها بقوّة الخلق هي التي جعلت عقله ينبثق عن إيمان بقدسية هذه القوّة، والتي حاول أن يجد لها رمزا معبرا، فاختار الأمومة الإنسانية كرمز قريب يلمسه بوضوح في مجتمعه الإنساني ويعبر في أبسط صور التعبير عن صورة الخلق، وبذلك كان خصب الأرض وإنتاجها للمحاصيل وراء تثبيت صورة المرأة كرمز للخصوبة بعد أن كانت رمزا للخلق».[8]

لم يكتف الإنسان الأوّل بتقديس المرأة/ الأمّ عبر الأسطورة فقط، بل إنّ أوّل أشكال التعبير الفنّي اهتمّت بتجسيد هذه الفكرة، عن الأمّ الآلهة، وقد ظهرت في البداية في شكل دمى ثمّ تطوّرت إلى شكل تماثيل

داخل المعبد، اهتمّ الفنان الأوّل فيها بتجسيد مراكز القوّة والخصوبة لدى المرأة، وهكذا ظهرت تماثيل الأمّ الكبرى.

فالرأس عبارة عن كتلة غير متمايزة والكتفان دقيقتان تبعد الذهن عن أيّ مفهوم للقوّة بمعناه الذكري، أما المنطقة الأساسية في تلك التماثيل فمنطقة الثديين والبطن والحوض وأعلى الفخدين التي تشكّل معا كتلة ممتلئة عني الفنان بإظهار وتضخيم كلّ جزء فيها بطريقة تبدو معها بقية الأعضاء كأنّها رسمت لتظهر ما لهذه الكتلة من أهمية قصوى، هكذا يثبت الفنان الأوّل ما له علاقة بالخصب والفيض الطبيعي الموجود في المرأة، وبذلك شكّل تقديس المرأة أولى تجليات القدسي في الحياة الإنسانية.

وترى الباحثة "عائشة بلعربي" في كتابها "المرأة والسلطة" «أنّ المرأة لا تكتمل إلاّ بالأمومة، ووضعيتها النهائية هي وضعية أمّ لابن أو عدّة أبناء، الشيء الذي يكسبها سلطة لكي تفرض نفسها وتتخلّص من كلّ مراقبة ذكورية».[9]

وتعدّ بعض القيم والتصورات المحرك الأساسي للسلوك الإنجابي، وتبدو مجسّدة في كثير من الممارسات لدى الأفراد وفي مختلف القطاعات المجتمعية وذوي المستويات الاجتماعية المتباينة. ولا نبالغ إذا قلنا أنّ هذه تعدّ من المحدّدات الأساسية للسلوك الإنجابي والتي تلعب دورا أساسيا في عملية تنظيم الأسرة، إذ يتوقّف على فهمها ودراسة مدلولاتها نجاح تلك البرامج أو فشلها.

«ومن تلك القيم قيمة الإنجاب، ذلك أنّ إنجاب الأطفال يدلّ على رجولة الزوج، كما يدلّ على أنوثة الزوجة، فالإنجاب يكسب الزوج مكانة اجتماعية جديدة كأبّ، كما يكسب الزوجة مكانة اجتماعية جديدة هي مكانة الأمّ، ويترتّب على ذلك حقوق و واجبات جديدة أيضا.»[10]

ولقد أفادت المادة الإثنوجرافية في جميع الحالات عن أهمية الإنجاب وخاصّة إنجاب الذكور وارتفاع مكانة المرأة التي تتمتّع بالخصوبة، ويتضح هذا في أقوالهم المتواترة وفي الأمثال الشعبية :

«اللّي وْلَدْ مَا مَاتْشْ».

«اللّي مَا يْغَلّيها وَلْدَها مَا يْغَلّيها جَلْدَها». (المقصود بهذا المثل أنّ المرأة التي لا يرفع مكانتها أولادها، لن يرفع مكانتها جمالها).

«وَلْدَكْ مَنْ دَمَّكْ يَنْعِي هَمَّكْ».

ارتبطت الصورة الإيجابية للمرأة في المثل الشعبي عامّة والمثل الشعبي العربي والجزائري خاصّة بالأمومة، فالوظيفة الأساسية التي يحدّدها المجتمع للمرأة هي الإنجاب والاستكثار، ولا تعدّ المرأة سيدة البيت ولا تستقرّ نفسيا حتى يجيء المولود وخاصّة الذكر فيقال :

«غَرْسَتْ نِيبَانْهَا».

«دَقَّتْ اوْتَادْهَا».

كما أنّ المرأة الولود من الصفات المفضّلة عند اختيار العروس ومن هنا نجد أنّ المرأة التي تنجب وخاصّة الذكور ترتفع مكانتها عند زوجها وأهله، إذ ترى العامة أنّ المرأة التي تنجب يحبّها زوجها ويخاف عليها، فلا يهدّدها بالطلاق ولا يفكّر في التعدّد، كما أنّه يحترمها ويأخذ برأيها في أمور حياتهم فتكون كلمتها مسموعة.

و«تشبّه الثقافة الشعبية المرأة التي لا تنجب بالأرض البور التي لا تصلح للزراعة بينما تشبّه المرأة المنجبة بالأرض الخصبة الصالحة للزراعة».[11]

ونلاحظ أنّ مرحلة الأمومة تكسب المرأة نوعا من الاهتمام والاحترام تفقده في مراحل أخرى من حياتها، إنّه وجه للتقديس والاحترام يصل إلى حدّ منح المرأة سلطة داخل الأسرة تمارسها ضدّ النساء من جنسها : الحماة/ الكنّة.

فحتى علماء النفس وعلى رأسهم "فرويد" -الذي رسم للمرأة صورة سلبية- ينظر إلى الأمّ نظرة إيجابية فيتوجّه بالاحترام إلى الأمّ، مصدر الألوهية، فالأنثوي والأمومي مرتبطان بالرمزية الفعلية، كحالة الدلالة على الدفاعات الصلبة الضرورية لاستحضار الباطن اللغز حيث تتعقّد بغمص الحياة والموت.

إنّ القوّة الرمزية لتصورات الألوهية مستعارة من الإنتاجية الأمومية التي تجعل هذه الأمور السلبية إيجابية : القدرة المذلة للأمّ، اللغز المحصر للحمل والخوف الموحى بواسطة الانفعال الأنثوي، وفضلا عن ذلك، تعلن الألوهية قيمة القدرة الخصبة والمغذية لمنتجة الحياة التي هي الأمّ.

توجد الرغبة في مادة الكائنات الحيّة، "وقد عرضها "فرويد" تحت شكلها الأول الغريزي، والغريزة المتحوّلة إلى رغبة بالكبت، تفترض المسافة التي تنشىء الحياة النفسية، مسافة بين الجامد والبشري، الحواسي والتصريفي، بين الفمّ والثدي".[12]

وترتفع قدسية الأمومة ليفضّلها المبدع الشعبي عن أداء الطقوس التعبدية :

«مْرَا وَلاَّدَة خِيرْ مَنْ مْرَا عَبَّادَة».

إنّ الارتباط بالابن والتبعيّة للأمّ يخترقان حياة الرجل والمرأة بأكملها، فتأتينا صورة الأمّ بوصفها أرقى أوضاع المرأة وأقدسها، إذ يقول المثل الشعبي : «اللّي عَنْدُو امُّو لا تَرْفَدْ هَمُّو».

فحتى الجدّات تحترم وقد تنال سلطة جبارة تجعلهنّ يتحكمن في تسيير شؤون العائلة 'إلاّ أنّ هذا الاحترام وهذه السلطة مصدرهما الإنجاب أي الجسد.

والصورة المضادة حين يعقم رحمها، فالعقم كلمة قاسية على النفس، وهي تعني لغة الجدب والقحالة، وتقابل المرأة بالأرض، فالأرض العاقر لا تمنح خيرا، والمرأة العاقر امرأة ناقصة، يمكن أن تترك وتنبذ لأنّها لم تمنح ذرية تخلّد اسم الأب وتقهر خوفه من الموت الذي يضع نهاية لوجوده الفيزيقي، إذ يقول المثل الشعبي معبّرا عن هذا المعنى :

«مْرَا بْلاَ وْلاَدْ كَالخِيمَة بْلاَ وْتَادْ» (وتاد : الأوتاد وهي الأركان والدعائم التي تقوم عليها الخيمة).

وترى الثقافة الشعبية أنّ المرأة العاقر يجب طلاقها لأنّ مثلها كمثل الشجرة إذا كانت غير مثمرة يحلّ قطعها : «الشَجْرَة اللِّي مَا تَوْلَدْشْ حْلاَلْ قَطْعْهَا».

غير أنّ الإثمار بالمعنى الضيق للمثل يتحدّد بالمنتج المادي ولكن الثمر بالمعنى العام الواسع يتسع إلى الظلّ وتنقية البنية وجمالها، وهي في المثل أيضا إحالات استهلاكية تنظر للمرأة من منطلق زاوية محدّدة تهمل آدميتها.

فعدم إنجاب الزوجة من الأسباب المقبولة اجتماعيا لكي يتزوّج الرجل مرّة أخرى من أجل الإنجاب، فالمرأة المنجبة في المجتمع الجزائري عامّة والريفي خاصّة، حياتها الزوجية والأسرية أكثر استقرارا من التي لا تنجب، كما أنّ لها مكانتها وسط زوجها وأهله.

أما المرأة العقيم فإنّها تواجه صعوبات نفسية واجتماعية في حياتها الزوجية والأسرية، ونلاحظ في بعض الأسر أنّ النساء لا يرتقين إلى مرتبة النضج الكامل إلاّ حين يلدن طفلهنّ الأوّل، وفي مثل تلك الأسر لا تعتبر المرأة العاقر "أنثى" أو "بالغة"، وتنادى ببعض المصطلحات التي تؤذي مشاعرها كقولهم "تِينَاشَة".

و«العقم يهدّد مكانة المرأة ويشعرها بعدم الاستقرار في حياتها الزوجية لاحتمال زواج زوجها مرّة أخرى، وهي بالنسبة للمحيطين بها تفتقد لأهمّ مقومات المرأة وهي "الخصوبة"، ولذا يجب أن تتخلّى عن مكانها لزوجة أخرى تستطيع تحقيق الهدف من الزواج، ألا وهو الإنجاب».[13] كما تخشى بعض النساء على أطفالهن من المرأة العقيم خوفا من أن تحسدهم، حيث تعتقد العامّة بأنّ المرأة المعوقة اجتماعيا وفيزيقيا تكون أكثر قدرة على الحسد، وهناك الكثير من الأمثال الشعبية والأقوال المتواترة التي تتناول المرأة العقيم والتي تفتقر للخصوبة منها :

«اللّي مَا تْجِيبْشْ الذَرّيَة حْرَامْ فِيهَا الرْعِيَة «(الرعية : الرعاية والمقصود بالمثل أنّ المرأة العقيم لا تستحقّ الرعاية المادية والمعنوية).

وتصوّر هذه الأقوال موقف المجتمع من المرأة غير المنجبة، فهي في نظرهم غير جديرة بالحياة الزوجية لأنّ الهدف من الزواج هو الإنجاب.

ومن خلال استجواب بعض النساء العقيمات في منطقة سبدو بولاية تلمسان تبيّن اختلاف النظرة إلى المرأة العقيم بين الأميات والمتعلمات من جانب وبين زوجها وأهله وأهلها من جانب آخر، فتقول إحداهنّ «لما يكون الرجل متعلما يرضى بقضاء اللّه وقدره، أما الجاهل فلا يرضى لأنّه ينظر إليها على أنّها الأرض البور القاحلة التي لا تنبت».

وتقول أخرى «إذا كان يحبها، مهما كانت الضغوط عليه، فإنّه لا يتزوّج عليها ويرضى بنصيبه وخاصّة المتعلمين». إلاّ أنّ أغلبهنّ اتفقن على أنّ الزوج مهما كان تعاطفه مع زوجته في البداية، فإنّه يضيق بها ويبدي استيائه ويفتعل المشاجرات باستمرار معها لرغبته في إنجاب أبناء يحملون اسمه ويكونوا ذكرى له، إلى جانب ضغوط أسرته ليتزوج

مرّة أخرى، وهو يلقى قبولا في المجتمع لأنّه يحدّد إحدى القيم المرغوبة ألا وهي الإنجاب.

أما عن موقف أهل الزوج، فهناك اتجاهين، الأوّل وهم القلّة يرضون بمشيئة الله ولا يجرحون مشاعر زوجة الابن، ويذهبوا بها إلى الأطباء والمشايخ ويساعدوها في بعض الممارسات الشعبية المرتبطة بالخصوبة.أما الاتجاه الثاني، فلقد كشف البحث الميداني على اتفاق أغلب النساء على أنّ موقف أهل الزوج يكون ضدّ الزوجة سواء من خلال التلميحات أو الضغط على الابن للزواج مرّة أخرى باستخدام الأمثال الشعبية كقولهم : «النْسَا تَتْبَطْ بَالنْسَا مَاشِي بَالعْصَا».[14]

وبالنسبة للأميات وخاصّة المقيمات في مسكن قادة بوتارن (الأمثال الشعبية الجزائرية - ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر- 1987 - ص 160).

العائلة، يتمّ تكليفها بأعمال شاقّة في المنزل أو الحقل، ويعايرونها بعدم الإنجاب إذا تبرمت أو احتجّت من كثرة الأعباء، بل يسعون إلى أن تكره البيت وتخرج منه برضاها، لكي يتزوّج ابنهم مرّة أخرى.

وبالنسبة لأهل الزوجة فإنّهم يتعاطفون معها، ويشفقون عليها، ويدافعون عنها بأنّ كلّ شيء بمشيئة الله، ويحرصون على تجنّب الحديث عن الإنجاب أمامها حتى لا يجرحون مشاعرها، ويأخذونها إلى الأطباء والمشايخ لعلاجها، كما يواسون الزوج ويساندونه حتى لا يترك ابنتهم.

وقد كشف البحث الميداني عن الكثير من الممارسات الشعبية التي تساعد المرأة على الحمل والإنجاب، وهي ترتبط بمراحل خصوبة المرأة بدءا بالزواج وما يتبعه من تأخّر الحمل أو العقم أو الإجهاض، وحتى الولادة تحاط بممارسات وطقوس خوفا من عدم تكرار الحمل.

وللأسف فإنّ المرأة تأخذ قيمتها واستقرارها من كثرة الإنجاب :

«الوْلاَدْ وْتَادْ».

« لاَ صُوفْ إلاَّ بَعْد الوَادْ وَلاَ مْرَا إلاَّ بَعْدَ لْوْلاَدْ».

لذلك يبقى موضوع الإنجاب شغلها الشاغل، تسعى المرأة إليه، حتى لو كان على حساب صحّتها وأوضاع بيتها.

والجدير بالذكر أنّ من أهمّ ما يبرز حاجة الأنثى إلى الأمومة هو أنّ كلّ أنثى بلغت سنّا معيّنا تعتبر وجودها ناقصا ما لم تنجب رغم ما تعرف من مشقّة الحمل والوضع والتربية إذ قال الله تعالى في كتابه العزيز : ((حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كَرْهًا وَوَضَعَتْهُ كَرْهًا)).[15]

وقد فسّر "الزمخشري" "الكره" بالمشقة والتعب والوهن والضعف[16]، وذلك من أجل ما يلحق الأمّ من معاناة أثناء الحمل والفصال عنه وما يصيب جسمها من تعب لكون الجنين يتطوّر وينمو في رحمها على حساب جسدها وقوّتها..

ومن جانب آخر، تحرص المرأة على الأمومة، لأنها متيقنة بأنّ الرجل إنما يتزوّج من أجل الإنجاب، وأنّه غالبا لا يقبل المرأة العاقر، فيسعى إلى الزواج مرّة أخرى :

«اللّي بْلاَ وْلاَدْ كْلاَهْ الوَادْ».

«اللّي مَا عَنْدُوشْ ثُورْ مَنْ بَقْرَاته وْوَلْدْ مَنْ مْرَاته، قَدْ مُوته قَدْ حْيَاته ».

ومن هنا «يكون التأنيث مفهوما ثقافيا وتصورا ذهنيا وليس قيمة طبيعية جوهرية، إنّه مفهوم مكتسب أو ممنوح من المعطى الثقافي، وبما أنّه مكتسب فهو أيضا متحوّل وقابل للزوال كما قال الدكتور عبد الله الغدامي».[17]

ويقول المثل الشعبي : «الهَدْرَا مْعَ النْسَا وَنّاسَة، تْبَعْدَكْ مْنَ الرْبَحْ وْتْقَرْبَكْ مْنَ الخْسَارَة».

إنّ هذا المثل يكشف عن تصوّر ذهني متعمّق في الثقافة الشعبية وهو أنّ الأنوثة خرساء ويزيد في جمالها أن تدع اللغة للرجل، فالأنوثة مجرد جسد يستقبل اللغة ويخضع لها من جهة، ويرسل علامات صامتة مشفرة لكي يتولى الرجل فكّ الشفرات وتفسير العلامات، ودائما يكون الترميز والألغاز والغموض شرطا في لغة المرأة ويكون الإفصاح عيبا.

هذه صورة ذهنية وشرط ثقافي، ولو حدث مرّة وخرجت الأنثى عن هذا الشرط، فإنّها تفقد موقعها المؤنث، كما يحدث دائما حين يتهم الرجل المرأة بأنّها ثرثارة وسليطة اللسان، وهذه عيوب جمالية في الأنوثة تجعل أيّ استخدام فصيح للسان خروجا على الشرط الجمالي، فتصبح اللغة ثرثرة والفصاحة سلاطة لسان، فليس منتظرا من الجسد المؤنث أن يتكلّم ويفصح ولذا يقول المثل الإنجليزي :

«الفتيات لكي تنظر إليهنّ وليس لتسمعهنّ».

أما لماذا يجري تفريغ الجسد المؤنث من اللغة وعزله عن الفعل والتفاعل اللغوي فهذا عائد إلى التصور الثقافي الذي يرى أنّ جسد المرأة خال من العقل، وهذا تصوّر ثقافي عالمي، إذ يقول المثل الدنمركي :

«للنساء فساتين طويلة وعقول صغيرة».[18]

والمعادلة الثقافية المحسومة هنا تقول أنّه بما أنّ الجسد المؤنث فارغ من العقل -كما تشهد الأمثال والحكايات والوقائع- فإنّ أيّ استعمال للّغة من قبل هذا الجسد يكون ثرثرة وحماقة، وكلّ عيب لساني يكون جمالا كاللّثغة في الحسناء، لأنّ الجسد المؤنث ليس مطلوبا منه أن يكون ذا لغة أو ذا بعد في النظر.

ويتحوّل هذا من تصوّر ذهني يعيش في المخيال الثقافي لكلّ الحضارات إلى قانون تشريعي مصرّح به، فقد كان في فرنسا قانون ينصّ على أنّ "الأولاد والمجانين والقصّر والنساء ليسوا مواطنين" وكان ذلك سنة 1793 م. هذا ما أفضت إليه الثقافة الإنسانية بتركيزها على الجسدية البحتة للأنوثة.

هناك تمييز ثقافي صارم بين كلمة "امرأة" وكلمة "أنثى"، فالمرأة ليست دائما أنثى، فهي أنثى في حالات وليست بأنثى في حالات، والتأنيث مجموعة صفات وحالات، إذا تمثلها الجسد النسوي فهو مؤنث و إلا فهو خارج الأنوثة.

ومن ناحية أخرى تمارس المرأة في المثل الشعبي قوّة استثنائية من خلال الرافد الجمالي، تهزم قيم وعقيدة الرجل، يقول المثل الشعبي الجزائري : «عْلى زِينَكْ وكْحَالْ عَيْنِيكْ»؛ أي أنّ الرجل إذا تنازل للمرأة أو تسامح معها فمن أجل جمالها وهذه غاية المفارقة، فهي امرأة خرقت المعتاد، مجازية الملامح، يتمثّل في جسدها دفق أنثوي يدفعها إلى صدارة المقام الاجتماعي. هذه الثقافة الشعبية ألبست المرأة - الجسد دلالات لامتناهية، إذ يقول "ميرلوبونتي":

«ينتصب الجسد كشيء مدرك وككيان مدرك للأشياء ...يشكل نسقا ضمن أنساق أخرى تلوذ جميعها بالكون بحثا عن معنى وعن دلالة، فإذا كانت كلّ الأشياء لا تدرك إلاّ من خلال ارتباطها بهذا الكون اللامتناهي الامتداد، فإنّ كينونة الجسد تكمن أيضا في ارتباطه بكون ما ، وجسدنا لا يوجد في الفضاء، إنّه الفضاء».[19]

يتشكل الجسد الأنثوي إذن كدال متكامل ومكثف بذاته وقادر على توليد سلسلة لامتناهية من الدلالات، فدالها الجمالي يلغي موقعها المعنوي في الثقافة الذكورية التي تمنحها اختلافا في مقاييس الجمال

بين امرأة وأخرى ومكان وآخر :

«كُلْ بْلاَدْ وَأْصَلْهَا وكُلْ، امْرَا و زِينْهَا».[20]

ينطلق المثل من مقولة «إنّ الله جميل يحبّ الجمال»، وإنّ المرأة الجميلة تضفي على حياة الرجل السعادة فيقال : «الزِّينْ يْحبُو رَبِي وَالنْبِي». وبذلك فإنّ افتنان الرجل بالجمال الأنثوي يمنحه بعدا دينيا يفسر به ولهه .

ويدخل المثل الشعبي في القوى الغيبية، فيقدم معطى عن آخر :

«وْلَدْ بَنْتَكْ زِينَة وْمَا الشْطَارَة تَتْعَلَمْهَا».

«جِيبْ بَنْتَكْ زِينَة وْمَا الحْدَاقَة يْعَلْمُوهَا لْهَا بْنَاتْ النْسَا».

إذن هذه الأمثال تعطي الأولوية والأهمية القصوى للجمال بالنسبة للبنت أما الأمور الأخرى فتتعلمها فيما بعد من طرف الآخرين. والفتاة الجميلة حسب المثل الشعبي وثقافته تخفّف همّ البنات على الأهل فيقال : «البَنْتْ الشَابَّة نَصّ مُصِيبَة»

لذلك ربط المثل الشعبي بين جمال المرأة وزواجها فقال :«اللِي زَادَتْ شَابَّة، زَادَتْ مْزَوْجَة».

وترى بعض الأمثال الشعبية الجزائرية أنّ كلّ قدرات المرأة تنحصر في جمالها وتبالغ في تقدير الجمال الأنثوي فتقرّر أنّ قيمة المرأة عند الرجل بجمالها وليس بأولادها إذ يقول المثل في هذا المعنى : «اللّي مَا يْغَلّيهَا جَلْدْهَا مَا يْغَلّيهَا وَلْدْهَا».

أي أنّ المرأة التي لا يرفع شأنها جمالها لن يرفعه لها ولدها، إذ يكاد أكثر الناس يجعل الشرط الوحيد عند اختيار الزوجة هو جمالها ولست أدري ما الذي يجعل هذا الخطأ القاتل مستمرا حتى اليوم بالرغم من الكوارث الاجتماعية التي ترتبت عنه.

هل السبب عائد إلى سيطرة الجمال المظهري على عامة النّاس، فهو في هذه الحالة كسيطرة بعض الغرائز عليهم ؟ أم أنّ التجارب المخفقة المترتبة على هذا الخطأ لم توضّح للآخرين عواقب هذا الاختيار ؟ أم أنّ السبب يعود إلى الانصياع والعمل بمثل هذه الأمثال التي تقول :

«خُذْ الشْبَابْ واقْعَدْ قْبَالَهْ وَإلاَ جُعْتْ شَاهَدْ جَمألَهْ»

«خُذْ المْلِيحْ واسْتْرِيحْ»

ويرى "بورديو" أنّ «الهيمنة الذكورية خاصية كونية متجذّرة في لاوعي الأفراد سواء كانوا ذكورا أو إناثا ورغم أنّها تعلن عن نفسها كمعطى طبيعي، فهي تبقى في الأصل بناء اجتماعي تاريخي ثقافي تنتجه وتعيد إنتاجه مجموعة من المؤسسات الاجتماعية. كما يرى أنّ المجتمعات البحر متوسطية تتقاسم نفس النظرة للجنسين حيث تجعل من الرجل مركز كلّ الأشياء، فالمجتمع القبائلي تطغى عليه النظرة الفالونرجسية، وهي نظرة مشتركة بين سائر مجتمعات البحر الأبيض المتوسط لكنها تتأرجح في درجاتها من مجتمع إلى آخر»[21]. وبالتالي يستنتج "بورديو" أنّ كلّ ما هو إيجابي مرتبط بالجسد الذكوري أما السلبي فهو مرتبط بالجسد الأنثوي، هذا الامتياز الذكوري الذي تغذيه ايديولوجية ثقافية ذكورية ينطلق من الجسد ثم ينعكس على تمظهراته وحركاته وكذا نشاطاته، فالجسد يخضع لنوع من الترويض الاجتماعي ليكتسب في آخر المطاف هوية جنسية.

## • خاتمة

مع ذلك مهما قيل ويقال فإنّ المرأة إنسان، والإنسان جسد وعقل وروح، فصدق رسول الله ﷺ الذي قال : ((النّساء شقائق الرّجال)) ، وتبقى المرأة تقوم بدور البطولة إلى جانب الرجل في مسرحية كبرى هي

الحياة، والجدير بالذكر أنّه بفضل انتشار التعليم والتقدّم في الزمن تغيّرت الذهنيات شيئا فشيئا، فلم يعد إنجاب الإناث في نظر الثقافة الشعبية المعاصرة دائما أمرا سلبيا خاصة في المدن، بل بالعكس في بعض الأسر أصبحت الأنثى تلعب دورا إيجابيا أكثر من بعض الذكور حتى قيل : «اللّي ما عندوش البنات ما عرفوهش باش مات».

## • الإحالات •


1- ابن منظور - لسان العرب - دار صادر - بيروت - ط 1 - 1990 - ص 113.

2- Le petit larousse 1992 - le robert dictionnaire de la langue francaise.

3- عبد الله الغذّامي - المرأة واللغة (2) ثقافة الوهم - مقاربات حول المرأة واللغة والجسد - المركز الثقافي العربي - الدار البيضاء - ط 1 - 2000 - ص 58.

4- المرجع نفسه ص 60.

5- المرجع نفسه ص 63 .

5- الرازي نجاة - الجسد الأنثوي - سلسلة بإشراف عائشة العربي - الشركة المغربية للناشرين المتحدين - المغرب - د. ت - ص 48 .

7- فراس السواح - لغز عشتار - دار علاء - دمشق - ط 6 - 1994 - ص 14.

8- المرجع نفسه ص 32.

9- الرازي نجاة - الجسد الأنثوي - ص 35.

10- د. فاتن محمد شريف - الثقافة والفلكلور - دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر - الإسكندرية - ط 1 - 2008 - ص 302.

11- المرجع نفسه - ص 303.

12- آني آنزيو - المرأة الأنثى (رؤية إجمالية للأنوثة من زاوية التحليل النفسي) - ترجمة طلال حرب - المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر - بيروت - ط1 - 1992 - ص 106.

13- د.فاتن محمد شريف - الثقافة والفلكلور - ص 304.

14- قادة بوتارن - الأمثال الشعبية الجزائرية - ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر - 1987 - ص 160) .

15- الأحقاف : 15.

16- الزمخشري - الكشاف - ط الإسقامة - القاهرة - 1946 - ص 302.

17- عبد الله الغدامي - المرأة واللغة - ثقافة الوهم (مقاربات حول المرأة والجسد واللغة) - 2000 - ص 5 .

18- نفسه ص 66.

19- Morleau - ponty - phenomenologie de la perception - ed.Gallimard - 1945 p 173.

20- قادة بوتارن - الأمثال الشعبية الجزائرية - ص 65.

21- بيار بورديو - الهيمنة الذكورية - ترجمة سلمان قعفراني - المنظمة العربية للترجمة - مارس 2012 - ص 31.

## • المراجع •

- القرآن الكريم

1- إبراهيم شعلان - الشعب المصري في أمثاله العامية - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة 1972.

2- ابن منظور - لسان العرب - دار صادر - بيروت - ط 1 - 1990 - ص 113.

3- آني آنزيو - المرأة الأنثى (رؤية إجمالية للأنوثة من زاوية التحليل النفسي) - ترجمة طلال حرب - المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر - بيروت - ط 1 - 1992.

4- بيار بورديو - الهيمنة الذكورية - ترجمة سلمان قعفراني - المنظمة العربية للترجمة - مارس 2012.

5- الرازي نجاة - الجسد الأنثوي - سلسلة بإشراف عائشة العربي - الشركة المغربية للناشرين المتحدين - المغرب - د.ت.

6- الزمخشري - الكشاف - ط الإسقامة - القاهرة - 1946.

7- عبد الله الغذّامي - المرأة واللغة (2) ثقافة الوهم - مقاربات حول المرأة واللغة والجسد - المركز الثقافي العربي - الدار البيضاء - ط 1 - 2000 - ص 58.

8- فاتن محمد شريف - الثقافة والفلكلور - دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر - الإسكندرية - ط 1 - 2008.

9- فراس السواح - لغز عشتار - دار علاء - دمشق - ط 6 - 1994.

10- قادة بوتارن - الأمثال الشعبية الجزائرية - ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر - 1987.

1- Morleau - ponty - phenomenologie de la perception -ed.Gallimard 1945-.

2- petit larousse 1992 - le robert dictionnaire de la langue francaise .